مجموعة قصص الأنبياء

بإشراف
محمد أحمد برانق



٧

يوسف الصديق عليه السلام

دار المعارف بمصر

مجموعة قصص الأنبياء
(٧)

بإشراف
محمد أحمد برانق

يوسف الصديق

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

١

عَاشَ إِبْرَاهِيمُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَعَ زَوْجَتِهِ سَارَةَ بِأَرْضِ فِلَسْطِينَ ، بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ ، وَأُمَّ وَلَدِهِ هَاجَرَ ، فَقَدْ أَصَرَّتْ زَوْجَتُهُ سَارَةُ عَلَى أَلَّا يَبْقَيَا مَعَهَا فِي مَنْزِلٍ تَسْكُنُ فِيهِ ، أَوْ يُقِيمَا بِبَلَدٍ تَعِيشُ بِهِ ، فَنَقَلَهُمَا بِأَمْرِ رَبِّهِ إِلَى وَادِي مَكَّةَ بِالْحِجَازِ .

وَبَيْنَمَا هُوَ وَزَوْجَتُهُ بِدَارِهِمَا ذَاتَ يَوْمٍ ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمَا ثَلَاثَةُ فِتْيَانٍ ، تَبْدُو الْوَسَامَةُ وَالْوَضَاءَةُ وَالطَّهَارَةُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَظَنَّهُمْ إِبْرَاهِيمُ ضُيُوفًا نَزَلُوا عَلَيْهِ .

فَرِحَ إِبْرَاهِيمُ بِهَؤُلَاءِ الضُّيُوفِ ، وَكَانَ قَدْ مَرَّ عَلَيْهِ أَيَّامٌ لَمْ يَطْرُقْ بَابَهُ ضَيْفٌ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا مِضْيَافًا ، يُنْعِمُ عَلَى كُلِّ عَابِرٍ مِمَّا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ .

فَقَامَ يُعِدُّ لِلضُّيُوفِ مَا اعْتَادَ أَنْ يُعِدَّ لِلْأَضْيَافِ ، وَمُبَالَغَةً فِي الِاحْتِفَاءِ بِهَؤُلَاءِ الضُّيُوفِ الْكِرَامِ ، الَّذِينَ تَدُلُّ سِيمَاهُمْ عَلَى كَرَمِ الْأَصْلِ ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ — قَامَ إِلَى عِجْلٍ سَمِينٍ فَذَبَحَهُ ،

وَبَعْدَ أَنْ نَضِجَ شِوَاءٌ أَتَى هُوَ وَسَارَةُ بِهِ ، وَقَدَّمَاهُ إِلَى الضُّيُوفِ ، وَجَلَسَ إِبْرَاهِيمُ مَعَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ .

وَلَـكِنَّ الضُّيُوفَ لَمْ تَتَحَرَّكْ أَيْدِيهِمْ إِلَى طَعَامٍ ؛ فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ الدَّعْوَةَ ، وَلَـكِنَّهُمْ لَمْ يَقْرَبُوا الطَّعَامَ أَيْضاً .

فَتَعَجَّبَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمْرِهِمْ هٰذَا ؛ فَمَا تَعَوَّدَ ذٰلِكَ مِنْ أَضْيَافٍ يَرِدُونَ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا رَأَتْ سَارَةُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ ، وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى خِدْمَةِ زَوْجِهَا وَضُيُوفِهِ احْتِفَاءً بِهِمْ ، قَالَتْ : مَا بَالُ ضُيُوفِنَا لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا ، وَنَحْنُ نُكْرِمُهُمْ ، وَنَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِمْ ؟ !

وَتَوَجَّسَ إِبْرَاهِيمُ مِنْهُمْ خِيفَةً ، لِمَا رَأَى مِنْ عَدَمِ أَكْلِهِمْ لِطَعَامِهِ ، فَسَأَلَهُمْ :

مَنْ أَنْتُمْ ؟ ! وَلِمَ لَا تَأْكُلُونَ ؟ !

فَقَالُوا : لَا تَخَفْ ؛ إِنَّنَا رُسُلُ رَبِّكَ ، أُرْسِلْنَا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ .

عِنْدَئِذٍ سُرِّيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَسُرَّتْ سَارَةُ وَضَحِكَتْ ، لِمَا يَعْلَمَانِ مِنْ خَطَايَا هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ

نَبِيِّهِمْ لُوطٍ ، وَمُعَاكَسَتِهِمْ لَهُ ، وَإِسْرَافِهِمْ فِي ارْتِكَابِ الْمُنْكَرِ
وَاسْتَطْرَدَ الرُّسُلُ فَقَالُوا :

وَقَدْ جِئْنَا إِلَيْكُمَا لِنُبَشِّرَكُمَا بِغُلَامٍ اسْمُهُ إِسْحَاقُ ، وَلِنُبَشِّرَكُمَا بِأَنَّ إِسْحٰقَ سَيَعِيشُ ، وَيُنْجِبُ أَوْلَادًا ، وَسَيَكُونُ مِنْ أَوْلَادِهِ يَعْقُوبُ .

فَاسْتَوْلَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الدَّهْشَةُ ، وَصَكَّتْ سَارَةُ وَجْهَهَا ، وَقَالَتْ :

يَا وَيْلَتَا ؛ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ، وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ !

وَلَمَّا ذَهَبَ الرَّوْعُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : أَتَذْهَبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ السَّاعَةَ ؟

قَالُوا : نَعَمْ ، وَمَوْعِدُنَا مَعَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ؟

فَجَزِعَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ ، وَقَالَ :

وَكَيْفَ يَنْجُو لُوطٌ ؟ !

أَجَابُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ ، وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ ، لِأَنَّهَا لَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ ، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِهِ وَأَقَرَّتْ قَوْمَهَا عَلَى ارْتِكَابِ مَا يَرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُنْكَرِ .

٢

وَصَدَقَتِ الْبُشْرَى ، وَحَمَلَتْ سَارَةُ ، وَوَضَعَتْ إِسْحٰقَ ؛ فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ وَجْهَهُ إِلَى السَّماءِ شَاكِرًا ، وقَالَ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسماعيلَ وإِسحاقَ ، إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ .

وَفَرِحَتْ سَارَةُ بِوَلَدِهَا الَّذِى رُزِقَتْ بِهِ بَعْدَ الْيَأْسِ ، فَرَحًا يَجِلُّ عَنْ كلِّ وَصْفٍ ، وأَحَبَّتْهُ حُبًّا مَلَكَ عَلَيْهَا جَمِيعَ مَشَاعِرِهَا ، فَإِسْحَاقُ دُنْيَاهَا الَّتِى تَعِيشُ فِيهَا ، وَنَعِيمُهَا الَّذِى تَنْعَمُ فِيهِ ، وَعَيْنَاهَا اللَّتَانِ تُبْصِرُ بِهِمَا ، وَعَقْلُهَا الَّذِى تُفَكِّرُ بِهِ ؛ وَأَخَذَتْ تَتَعَهَّدُهُ بِالعِنَايَةِ والرِّعَايَةِ ، حَتَّى كَبِرَ وَشَبَّ .

وَمَاتَتْ سَارَةُ ، فَحَزِنَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ ، وَدَفَنَاهَا بِحَبْرُونَ « وَتُعْرَفُ الآنَ بِمَدِينَةِ الْخَلِيلِ ، وقَدْ دُفِنَ فِيهَا بَعْدَ ذٰلِكَ إِبْرَاهِيمُ ، وَوَلَدُه إِسحاقُ ، وَحَفِيدُه يَعْقُوبُ » .

وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُزَوِّجَ ابْنَهُ إِسْحَاقَ زَوْجَةً مِنْ عَشِيرَتِهِ وَأَهْلِهِ ، تَكُونُ لِابْنِهِ عِوَضًا مِنْ أُمِّهِ .

فَكَلَّفَ تَابِعًا مِنْ أَتْبَاعِهِ ، وَكَانَ رَجُلًا مُسِنًّا عَاقِلًا ، ذَا دِرَايَةٍ

أَنْ يَذْهَبَ فَيَخْطُبَ لِابْنِهِ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ إِخْوَتِهِ وَأَعْمَامِهِ الْمُقِيمِينَ بِأَرْضِ الْكُوفَةِ ، وَيَأْتِيَ بِهَا إِنْ قَبِلَتْ وَقَبِلَ ذَوُوهَا ، لِيَعِيشَ مَعَ ابْنِهِ حَيْثُ يُقِيمُ . لِأَنَّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ ابْنُهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خَرَجَ أَبُوهُ مِنْهَا مِنْ قَبْلُ .

فَذَهَبَ الرَّجُلُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ نَفْسَهُ لِهٰذَا السَّفَرِ ، وَهَيَّأَ هَدِيَّةً ثَمِينَةً ، تَلِيقُ لِمَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ خِطْبَةٍ ، حَمَلَهَا فَوْقَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْإِبِلِ . وَسَارَ هُوَ وَقَافِلَتُهُ ، حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي يَقْصِدُهَا ؛ فَحَطَّ رِحَالَهُ بِجِوَارِ مَجْرَى مَاءٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ كَيْ يَسْتَرِيحَ ، وَيُهَيِّئَ نَفْسَهُ .

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَوْضِعِهِ هٰذَا ، خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ فَتَاةٌ ذَاتُ مَلَاحَةٍ وَجَمَالٍ تَبْغِي الْمَاءَ ؛ فَمَلَأَتْ جَرَّتَهَا ، وَاسْتَدَارَتْ لِتَعُودَ إِلَى بَيْتِهَا . فَخَطَرَ بِبَالِ الرَّجُلِ أَنْ يَسْأَلَهَا عَمَّنْ يَقْصِدُ ، فَقَالَ يُمَهِّدُ لِلْحَدِيثِ : أَلَا سَقَيْتِنِي يَا فَتَاةُ ؟ فَأَنْزَلَتِ الْفَتَاةُ الْجَرَّةَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهَا ، وَأَعْطَتْهُ إِيَّاهَا لِيَشْرَبَ ؛ وَقَالَتْ : اسْتَقِ لِجِمَالِكَ أَيْضاً ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى الْجِمَالِ تَسْقِيهَا .

وَتَأَمَّلَ الرَّجُلُ الْفَتَاةَ ، فَوَجَدَهَا حَسْنَاءَ ذَاتَ اعْتِدَالٍ

وَجَمَالٍ ، فَقَالَ يَسْأَلُهَا : بِنْتُ مَنْ أَنْتِ يَا فَتَاةُ ؟

وَهَلْ أَجِدُ مَكَانًا لَدَيْكُمْ لِمَبِيتِي وَمَبِيتِ إِبِلِي ؟

قَالَتْ : أَنَا بِنْتُ بَتُوئِيلَ بْنِ نَاحُورَ ، وَعِنْدَنَا مَبِيتٌ لَكَ ، وَعَلَفٌ لِمَاشِيَتِكَ ، فَانْتَظِرْ حَتَّى أُخْبِرَ أَبِي ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يُرَحِّبُ بِكَ . وَسُرَّ ٱلرَّجُلُ مِنْ إِجَابَتِهَا ، وَرَاقَهُ أَدَبُهَا ؛ فَعَوَّلَ فِي نَفْسِهِ عَلَى أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْفَتَاةُ هِيَ طَلِبَتَهُ فَيَخْطُبَهَا لِإِسْحٰقَ مِنْ أَبِيهَا .

وَأَسْرَعَتِ ٱلْفَتَاةُ ، وَكَانَ ٱسْمُهَا رِفْقَةَ — إِلَى أَبِيهَا ، فَأَخْبَرَتْهُ بِخَبَرِ ٱلزَّائِرِ . فَأَوْفَدَ ٱبْنًا لَهُ لِاسْتِقْبَالِ ٱلزَّائِرِ ، وَالتَّرْحِيبِ بِهِ .

وَلَمْ يَلْبَثْ الِابْنُ أَنْ عَادَ بِالزَّائِرِ إِلَى أَبِيهِ ، فَأَضَافَهُ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُ ؛ فَأَخْبَرَهُمْ رَسُولُ إِبْرَاهِيمَ بِخَبَرِهِ ، وَحَدَّثَهُمْ بِمَا حَضَرَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ٱخْتِيَارُهُ عَلَى رِفْقَةَ زَوْجَةً لِابْنِ سَيِّدِهِ إِبْرَاهِيمَ ؛ فَوَافَقُوا جَمِيعًا وَأَجَابُوهُ إِلَى مَا طَلَبَ ، وَلَمْ تُعَارِضْ رِفْقَةُ فِي تَرْكِ بَلَدِهَا وَأَهْلِهَا ، وَٱلذَّهَابِ مَعَ هٰذَا ٱلرَّسُولِ إِلَى بِلَادٍ وَدِيَارٍ أُخْرَى غَيْرِ بِلَادِهَا وَدِيَارِهَا .

وَسَرْعَانَ مَا تَأَهَّبَتْ لِهٰذَا ٱلرَّحِيلِ ، وَجَهَّزَهَا أَهْلُهَا بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهَا ، وَبِمَا يَلْزَمُ لِعَرُوسٍ تَنْتَقِلُ مِنْ بِلَادِهَا لِزِفَافِهَا ؛

وَصَحِبَهَا فِي سَفَرِهَا خَدَمٌ وَأَتْبَاعٌ . وَعَادَ رَسُولُ إِبْرَاهِيمَ بِرِفْقَةَ عَرُوسِ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَى وَالِدَهَا وَأَهْلَهَا مَا حَمَلَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَمَتَاعٍ وَهَدَايَا ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ حَمَّلَهُ إِيَّاهَا لِيُقَدِّمَهَا لِمَنْ يَقَعُ ٱخْتِيَارُهُ عَلَيْهَا .

وَزُفَّتْ رِفْقَةُ إِلَى إِسْحَاقَ ، فَوَجَدَ فِيهَا عَنْ أُمِّهِ عِوَضًا وَعَزَاءً .

وَأَنْجَبَتْ غُلَامَيْنِ تَوْءَمَيْنِ ، غَيْرَ ٱلْإِنَاثِ : أَوَّلُهُمَا عِيصُو ، وَثَانِيهِمَا يَعْقُوبُ . وَأَحَبَّ إِسْحٰقُ عِيصُو أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ يَعْقُوبَ ؛ وَأَحَبَّتْ رِفْقَةُ يَعْقُوبَ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهَا عِيصُو .

وَكَانَ عِيصُو كَثِيرَ ٱلْكَلَامِ ، دَائِمَ ٱلْحَرَكَةِ ، فِيهِ خِفَّةٌ وَطَيْشٌ ، وَكَانَ يَعْقُوبُ هَادِئًا ، سَاكِنًا ، رَزِينًا .

وَشَبَّ ٱلْوَلَدَانِ ؛ فَاشْتَغَلَ عِيصُو بِالصَّيْدِ ، وَٱشْتَغَلَ يَعْقُوبُ بِتَرْبِيَةِ ٱلْغَنَمِ .

وقَالَ إِسحاقُ يَوْمًا — وَكَانَ قَدْ ضَعُفَ بَصَرُهُ — لِابْنِهِ عِيصُو : يَا بُنَيَّ ؛ إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ تَأْتِيَنِي الْيَوْمَ بِشِوَاءٍ مِنْ صَيْدِكَ ، وَإِذَا فَعَلْتَ دَعَوْتُ لَكَ ٱللّٰهَ بِدَعْوَةٍ دَعَاهَا لِي أَبِي .

وَسَمِعَتْ رِفْقَةُ مَا قَالَ زَوْجُهَا لِابْنِهِ عِيصُو ، وَكَانَ دَائِمَ

ٱلدُّعَاءِ لَهُ : فَأَرَادَتْ أَنْ تَخُصَّ وَلَدَهَا يَعْقُوبَ بِهٰذِهِ ٱلدَّعْوَةِ .

فَجَاءَتْ إِلَى يَعْقُوبَ وَقَالَتْ لَهُ : أُذْبَحْ يَا بُنَيَّ مِنْ غَنَمِكَ وَاحِدَةً ، وَأْتِ بِهَا وَالِدَكَ ، لِيَدْعُوَ لَكَ دَعْوَةً سَتُجَابُ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ .

فَأَطَاعَهَا يَعْقُوبُ ، وَذَبَحَ شَاةً وَأَنْضَجَهَا ، وَأَتَى بِهَا وَالِدَهُ ، فَأَكَلَ مِنْهَا إِسْحٰقُ حَتَّى شَبِعَ ، ثُمَّ دَعَا لِمُطْعِمِهِ بِدَعْوَتِهِ .

وَأَتَى عِيصُو بِشِوَاءٍ مِنْ صَيْدِهِ لِأَبِيهِ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَقَرَّبَهُ مِنْهُ قَائِلاً : كُلْ يَا أَبِي مَا طَلَبْتَ مِنِّي

قَالَ إِسْحٰقُ : مَا هٰذَا يَا بُنَيَّ ؟ ! قَالَ : مَا ٱشْتَهَيْتَ مِنْ شِوَاءِ ٱلصَّيْدِ . قَالَ دَهِشاً : أَوَلَمْ تَأْتِنِي بِشِوَاءٍ مُنْذُ قَلِيلٍ ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ ، وَدَعَوْتُ لَكَ ؟ ! قَالَ : لَا ؛ إِنَّنِي لَمْ أَحْضُرْ غَيْرَ السَّاعَةِ .

وَعَرَفَ أَبُوهُ أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ هُوَ صَاحِبَ الشِّوَاءِ ٱلْأَوَّلِ ، فَكَانَ السَّابِقَ إِلَى دَعْوَةِ أَبِيهِ . فَدَعَا إِسْحٰقُ لِعِيصُو بِدَعْوَةٍ أُخْرَى ؛ وَلٰكِنَّ عِيصُو كَانَ قَدِ ٱمْتَلَأَ حِقْداً عَلَى يَعْقُوبَ .

وَخَرَجَ عِيصُو مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ ، وَهُوَ مَغِيظٌ مُحْنَقٌ ، يَتَوَعَّدُ أَخَاهُ يَعْقُوبَ ، وَيُضْمِرُ لَهُ شَرًّا .

وَلَمْ تَسْتَطِعْ رِفْقَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ وَلَدَيْهَا ؛ فَكَانَ

عِيصُو دَائِمَ التَّهْدِيدِ لِأَخِيهِ ، وَلَا يَكُفُّ عَنْ إِيذَائِهِ ، وَمُخَاشَنَتِهِ ، وَلَا يَنِي عَنِ الْعَمَلِ عَلَى إِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِهِ .

فَلَمْ تَجِدْ رِفْقَةُ بُدًّا مِنْ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا خَشْيَةَ أَنْ يَفْتِكَ عِيصُو بِيَعْقُوبَ ؛ فَأَسَرَّتْ إِلَى يَعْقُوبَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى أَرْضِ قَوْمِهَا ؛ فَيُقِيمَ عِنْدَ خَالِهِ لَابَانَ ، حَتَّى يَذْهَبَ مَا عِنْدَ أَخِيهِ لَهُ مِنْ مَوْجِدَةٍ وَحِقْدٍ . وَطَلَبَتْ مِنْ إِسْحَاقَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِذٰلِكَ ، وَيُوصِيَهُ خَيْراً ، وَيَدْعُوَ لَهُ .

فَفَعَلَ إِسْحٰقُ ، وَدَعَا لِابْنِهِ .

وَخَرَجَ يَعْقُوبُ فِي يَوْمِهِ هٰذَا مِنْ دَارِ أَبِيهِ ، يَحْمِلُ مَتَاعَهُ الْقَلِيلَ فَوْقَ ظَهْرِهِ ، يَقْصِدُ خَالَهُ .

وَأَمْسَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، وَهُوَ فِي مَكَانٍ خَالٍ ، لَا دَارَ فِيهِ وَلَا نَارَ ، فَهَيَّأَ لِنَفْسِهِ مَوْضِعاً يَنَامُ فِيه ، حَتَّى يَبْزُغَ الْفَجْرُ ، فَيُوَاصِلَ سَيْرَهُ ؛ وَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ حَجَرٍ عَلَى الْأَرْضِ ، فَتَوَسَّدَهُ وَنَامَ .

وَرَأَى فِي نَوْمِهِ هٰذَا كَأَنَّ سُلَّماً قَدْ نُصِبَ ، وَامْتَدَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَصْعَدُونَ فِيهِ وَيَنْزِلُونَ ، وَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لَهُ : إِنِّي سَأُبَارِكُ لَكَ ، وَأُكْثِرُ نَسْلَكَ ،

وَأَجْعَلُ هٰذِهِ ٱلْأَرْضَ لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ .

وَهَبَّ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ خَاشِعاً مَبْهُوراً ، يَكَادُ يَنْفَطِرُ قَلْبُهُ رَهْبَةً وَفَرَحًا ، وَعَمَرَتْ نَفْسُهُ إِيمَانًا وَتَقْوَى وَدَارَ بِعَيْنَيْهِ فِيمَا حَوْلَهُ ، يَمْلَؤُهُمَا مِنْ هٰذَا ٱلْمَكَانِ ٱلْمُقَدَّسِ ٱلَّذِى شَاهَدَ فِيهِ فِى نَوْمِهِ ٱلْمِعْرَاجَ ٱلْمُوَصِّلَ إِلَى عَرْشِ ٱللهِ ، وَنَذَرَ لِلّٰهِ قَائِلاً :

يَارَبِّ ، لَئِنْ عُدْتُ إِلَى أَهْلِى سَالِماً — لَأَبْنِيَنَّ لَكَ فِى هٰذَا ٱلْمَكَانِ مَعْبَدًا مُقَدَّسًا تُعْبَدُ فِيهِ .

وَٱسْتَقْبَلَ لَابَانُ يَعْقُوبَ بِالتَّرْحِيبِ ، وَأَنْزَلَهُ فِى دَارِهِ عَلَى سَعَةٍ .

وَكَانَ لِلَابَانَ ٱبْنَتَانِ : تُسَمَّى كُبْرَاهُمَا لِيئَةَ ، وَتُسَمَّى الصُّغْرَى رَاحِيلَ ، وَكَانَتْ رَاحِيلُ عَلَى جَانِبٍ وَافِرٍ مِنَ ٱلْجَمَالِ ، وَحَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمَلَاحَةِ ؛ فَرَغِبَ يَعْقُوبُ إِلَى خَالِهِ أَنْ يُزَوِّجَهُ مِنْهَا . فَقَالَ لَهُ خَالُه :

وَهَلْ مَعَكَ يَا يَعْقُوبُ مَا يَفِى بِصَدَاقِهَا ؟

قَالَ يَعْقُوبُ : لَا ؛ وَلٰكِنِّى سَأَخْدُمُكَ يَا خَالِى ، وَأَشْتَغِلُ عِنْدَكَ أَجِيراً دُونَ مُقَابِلٍ حَتَّى أَفِىَ بِمَا تَفْرِضُهُ عَلَىَّ مِنْ صَدَاق

قالَ ٱلْخَالُ : إِذَنْ عَلَيْكَ أَنْ تَرْعَى لِى غَنَمِى سَبْعَ سِنِينَ ، وَبَعْدَ أَنْ تُتِمَّهَا أُزَوِّجُهَا لَكَ .

وَمَضَتْ ٱلسِّنُونَ تَتَتَابَعُ ، وَيَعْقُوبُ يَقُومُ عَلَى غَنَمِ خَالِهِ وَمَوَاشِيهِ مَقَامَ ٱلرَّاعِى ٱلْأَمِينِ ؛ فَلَمَّا أَتَمَّ ٱلسِّنِينَ ٱلسَّبْعَ طَلَبَ إِلَى خَالِهِ أَنْ يَفِيَ لَهُ بِوَعْدِهِ ، وَيُزَوِّجَهُ مِنِ ٱبْنَتِهِ .

فَأَقَامَ خَالُهُ وَلِيمَةً كَبِيرَةً لِأَصْدِقَائِهِ ، وَأَهْلِ دَارِهِ ؛ وَلَمَّا أَمْسَى ٱلْمَسَاءُ زُفَّتْ إِلَى يَعْقُوبَ عَرُوسُهُ .

وَفِى ٱلصَّبَاحِ كَشَفَ يَعْقُوبُ أَنَّ عَرُوسَهُ ٱلَّتِى زُفَّتْ إِلَيْهِ لَيْلًا هِيَ لِيئَةُ ، وَلَيْسَتْ رَاحِيلَ !

وَكَانَتْ لِيئَةُ ضَعِيفَةَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، قَبِيحَةَ ٱلْمَنْظَرِ ، فَغَضِبَ يَعْقُوبُ مِنْ غَدْرِ خَالِهِ بِهِ ، وَقَالَ لَهُ يُعَاتِبُهُ :

لِمَ فَعَلْتَ ذٰلِكَ يَا خَالِى ، وَأَنَا إِنَّمَا خَطَبْتُ مِنْكَ رَاحِيلَ ؟ !

قَالَ ٱلْخَالُ : أَتَكُونُ مِنْ أَهْلِى ، وَتَبْغِى ضَرَرِى ؟ ! إِنَّ مِنْ عَادَتِنَا أَلَّا نُزَوِّجَ ٱلصُّغْرَى قَبْلَ ٱلْكُبْرَى وَإِلَّا كَانَ ذٰلِكَ عَاراً عَلَيْنَا ؛ فَإِنْ كُنْتَ لَا تَزَالُ تَرْغَبُ فِى رَاحِيلَ — فَأَنَا لَا أُمَانِعُ فِى تَزْوِيجِهَا لَكَ عَلَى أَنْ تَعْمَلَ عِنْدِى سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَى ،

فإِنْ أتممْتَهَا زَوَّجْتُكَ مِنهَا .

قَبِلَ يَعْقُوبُ ذٰلِكَ، وَعَمِلَ لِخَالِهِ سَبْعَ سَنَوَاتٍ أُخْرَى ، وَفِي تَمَامِهَا زُفَّتْ إِلَيْهِ رَاحِيلُ ، وَكَانَ غَيْرَ مُحَرَّمٍ عِنْدَهُمْ أَنْ يَجْمَعَ ٱلزَّوْجُ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ؛ وَوَهَبَ لَابَانُ لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنِ ٱبْنَتَيْهِ جَارِيَةً تَخْدُمُهَا ، وَتُؤْنِسُهَا .

وَلَمْ تَحْمِلْ رَاحِيلُ مِنْ يَعْقُوبَ ؛ فِي حِينَ كَانَتْ أُخْتُهَا لِيئَةُ قَدْ وَلَدَتْ لَهُ عَدَداً وَافِرًا مِنَ ٱلْأَوْلَادِ . وَتَشَوَّقَتْ رَاحِيلُ إِلَى صَغِيرٍ تُدَاعِبُهُ ، وَتُلَاعِبُهُ ، فَوَهَبَتْ لِيَعْقُوبَ جَارِيَتَهَا ، لَعَلَّهَا تَأْتِيهَا بِوَلَدٍ مِنْهُ . وَرَأَتْ لِيئَةُ ما فعلَتْ أُخْتُهَا ، فَوَهَبَتْ هِيَ ٱلْأُخْرَى لَهُ جَارِيَتَهَا كَذٰلِكَ .

وَجَاءَتْ كُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلْجَارِيَتَيْنِ لِيَعْقُوبَ بِغُلَامَيْنِ .

وَأَتَتْهُ لِيئَةُ بِسِتَّةِ بَنِينَ وَبِنْتٍ . وَبَقِيَتْ رَاحِيلُ عَاقِرًا لَا تَلِدُ ، فَكَانَتْ تَدْعُو رَبَّهَا لَيْلًا وَنَهَاراً أَنْ يَهَبَ لَهَا وَلَدًا .

وَمَنَّ ٱللّٰهُ أَخِيراً عَلَى رَاحِيلَ ، فَحَمَلَتْ ، ثُمَّ أَتَتْ بِوَلَدٍ .

وَكَانَ وَلَدًا ما رَأَتْ عَيْنٌ أَبْهَى مِنْهُ شَكْلًا ، وَلَا سَمِعَتْ أُذُن أَجْمَلَ مِنْهُ وَصْفاً . وَفَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ فَرَحًا عَظِيماً ، وَسَمَّاهُ أَبُوهُ يُوسُفَ .

٣

وَاشْتَاقَتْ نَفْسُ يَعْقُوبَ إلَى قَوْمِهِ وَأَهْلِهِ ، فَأَزْمَعَ الرَّحِيلَ بِنِسَائِهِ وَأَوْلَادِهِ ، عَائِداً إلَى وَطَنِهِ فَذَهَبَ إلَى خَالِهِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ السَّمَاحَ لَهُ بِذَلِكَ .

فَقَالَ لَهُ الْخَالُ : « يَا بُنَيَّ ؛ لَكَ مَا تَشَاءُ ، فَلَا اعْتِرَاضَ لِي عَلَيْكَ، وَقَدْ عَادَتْ عَلَيَّ حُسْنُ رِعَايَتِكَ لِمَاشِيَتِي بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ ؛ فَزَادَ نِتَاجُهَا ، وَكَثُرَ عَدَدُهَا ؛ فَسَلْنِي فِي مَالِي مَا شِئْتَ » .

قَالَ يَعْقُوبُ : أَعْطِنِي مِنْ نِتَاجِ مَاشِيَتِكَ هَذَا الْعَامَ كُلَّ حَمَلٍ يُولَدُ أَبْقَعَ ، وَكُلَّ جَدْيٍ أَجْلَحَ أَبْيَضَ .

فَقَالَ لَهُ خَالُهُ : لَكَ ذَلِكَ عَلَيَّ يَابْنَ أُخْتِي .

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ لِيَعْقُوبَ مِنَ الْمَاشِيَةِ نِتَاجٌ كَبِيرٌ ؛ فَقَدْ وَلَدَتْ أَكْثَرُ الشِّيَاهِ وَالْمَاعِزِ صِغَاراً عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي طَلَبَهُ يَعْقُوبُ .

وَهَالَ لَابَانَ مَا أَخَذَ يَعْقُوبُ مِنْ أَمْوَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْنَعَهُ شَيْئاً ، أَوْ أَنْ يَنْقُضَ وَعْدَهُ مَعَه ؛ فَأَخَذَ يَعْقُوبُ

مَا خصَّهُ مِنَ ٱلْماَعِزِ وَٱلشَّاهِ ، وَأَصْبَحَ وَلَهُ مَالٌ وَعِنْدَه ثَرْوةٌ .

وَخَرَجَ يَعْقُوبُ بِأَهْلِهِ يَبْغِي بِلاَدَهُ ، سَالِكاً ٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي أَتَى مِنْها مُنْذُ سِنِينَ ، وَحِيداً فعادَ فِيهاَ بَيْنَ أَهْلٍ وَوَلَدٍ ، وَمَالٍ وَخَدَمٍ .

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى حُدُودِ بِلاَدِه ، أَرْسَلَ بَعْضَ خَدَمِه رُسُلاً إِلَى أَخِيهِ عِيصُو يُعَرِّفُونَهُ خَبَرَ عَوْدَتِهِ ، وَيَسْتَطْلِعُونَ نِيَّاتِهِ نَحْوَه ، وَرَجَعَ ٱلرُّسُلُ لِيُخْبِرُوا يَعْقُوبَ أَنَّ أَخَاهُ عِيصُو آتٍ إِلَيهِ فِي جَمْعٍ كَبِيرٍ مِنَ الرِّجالِ .

فَخَشِيَ يَعْقُوبُ مِنْ ذٰلك ، وَتَوَجَّسَ مِنْ أَخِيهِ خِيفَةً ؛ وَٱسْتَصْوَبَ أَنْ يَبْدَأَهُ بِالحَسَنَةِ فَأَعَدَّ لَهُ هَدِيَّةً عظيمةً ، وَٱنْتَخَبَ لَهُ قَطِيعاً مِنْ غَنَمِهِ ، وَبَعَثَهُمَا مَعَ ٱلرُّسلِ لِمُلاَقَاتِهِ بِهِمَا .

وَتَأَخَّرَ يَعْقُوبُ بِأَوْلاَدِهِ وَنِسَائِهِ ، حَتَّى يَرَى نَتِيجَةَ سَعْيِ ٱلرُّسُلِ إِلَى أَخِيهِ ، وَجَعَلَ يَسِيرُ لَيْلاً وَيَخْتَبِئُ نَهَاراً ، وَهُوَ يَبْتَهِلُ إِلَى ٱللهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْهُ شَرَّ أَخِيهِ .

وَفِي فَجْرِ يَوْمٍ رَأَى يَعْقُوبُ فِي نَوْمِهِ شَبَحاً يُقْبِلُ عَلَيْهِ مِنْ بعيدٍ ، فلَمَّا دَنَا مِنْهُ رَآهُ رَجُلاً ، وَصَارَ يَقْرُبُ مِنْهُ شَيْئاً فَشَيْئاً ،

حَتَّى وَقَفَ بِإِزَائِهِ ؛ فَسَأَلَ يَعْقُوبَ :

ما اسْمُكَ ؟

أَجَابَ : اسْمِي يَعْقُوبُ .

قالَ الرَّجُلُ : اسْمُكَ مُنْذُ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلُ .

فَقَالَ لَهُ يَعْقُوبُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا اسْمُكَ ؟

فَاخْتَفَى الرَّجُلُ فَجْأَةً .

اسْتَيْقَظَ يَعْقُوبُ ، وَعَلِمَ أَنَّهَا رُؤْيَا صَادِقَةٌ ، فَأَيْقَنَ أَنَّ اللهَ قَدِ اصْطَفَاهُ كَمَا اصْطَفَى أَبَاهُ إِسْحٰقَ وَجَدَّهُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ ، فَخَرَّ لِلّٰهِ سَاجِداً ، شَاكِراً لَهُ ما حَبَاهُ مِنْ فَضْلٍ .

وَرَفَعَ رأْسَهُ ، فَوَجَدَ أَخَاهُ عِيصُو قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي جَمَاعَتِهِ ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ مُسَلِّماً ؛ فَتَلَقَّاهُ أَخُوهُ بِالْحَفَاوَةِ وَالتَّرْحِيبِ ، وَسَأَلَهُ عَمَّنْ مَعَهُ .

فَقَالَ : هٰؤُلَاءِ نِسَائِي وَأَوْلَادِي وَخَدَمِي .

فَقَالَ لَهُ : بُورِكَ لَكَ فِيهِمْ يَا أَخِي ، وَلَقَدْ صِرْتُ أَنَا أَيْضاً فِي عَدَدٍ مِنَ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ ، وَأُمُّهُمْ نَسْمَةُ بِنْتُ عَمِّي إِسْمَاعِيلَ .

٤

رجعَ يعقوبُ إلى وَطَنه فاشترَى مزرعةً ، وابتنى بيتًا ، ثُمَّ أقامَ لهُ مسجدًا في المكانِ الذى أوحيَ إليه فيه أولَ مرةٍ ، وسمّاهُ بيتَ إله إسرائيلَ ، ثُمَّ سُمِّيَ فيما بعدُ بيت المقدس .

وحملتْ راحيلُ مرّةً أخرى ، فولدتْ غلامًا سُمِّيَ بنيامينَ ، ولـكنها لمْ ترهُ ، ولمْ تسعدْ به ، فماتتْ عقبَ ولادته .

وأحبَّ يعقوبُ يوسفَ وأخاهُ الصغيرَ حبًّا جمًّا ، وصارَ يغمرُهُما بحنانه وعطفه ، ليُعوِّضهُما عن حنانِ أمِّهما حنانًا ، وليستبدلا بعطفها عطفًا .

كذلك أحبّتْ أختُ يعقوبَ ابنَ أخيها يوسفَ ، ووَدّتْ لوْ تأخذُهُ ليعيشَ معها ، ولـكنَّ أباهُ كانَ ضنينًا عليها به ، لشدةِ حُبِّهِ لهُ ، وتعلّقهِ به ؛ فلا يستطيعُ أنْ يفارقَهُ .

وسعتِ العمةُ لدى أخيها كلَّ مسعىً ، واحتالت بشتّى الحيلِ على أنْ ينزلَ لها عنهُ ، ويتركَهُ لها : تكفلُهُ وترعاهُ

وَتَقُومُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ ، وَلٰكِنَّه لَمْ يَقْبَلْ . وَأَخِيرًا هَدَاهَا تَفْكِيرُهَا إِلَى أَنْ تُدَبِّرَ أَمْراً تَصِلُ بِهِ إِلَى مَا تُرِيدُ .

فَأَتَتْ يُوسُفَ يَوْماً ـ وَهُوَ نَائِمٌ ـ وَأَخْفَتْ تَحْتَ ثِيابِهِ مِنْطَقَةً كَانَتْ لِجَدِّها إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ أَعْلَنَتْ ضَيَاعَهَا وَسَرِقَتَهَا ، وَأَخَذَتْ تَبْحَثُ عَنْهَا حَتَّى أَخْرَجَتْهَا أَمَامَ النَّاسِ جَمِيعاً مِنْ تَحْتِ ثِيَابِ يُوسُفَ وَعِنْدَئِذٍ طَلَبَتْ مِنْ أَخِيهَا أَنْ يُبْقِيَ يُوسُفَ عِنْدَهَا ، يَخْدُمُهَا حِيناً جَزَاءً لَهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنْ سَرِقَةٍ فَتَرَكَهُ أَبُوهُ لَهَا ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ حِيلَةٌ مِنْ أُخْتِهِ لِتَصِلَ بِهَا إِلَى يُوسُفَ .

وَظَلَّ يُوسُفُ فِي حَضَانَةِ عَمَّتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَتْ ، فَانْتَقَلَ إِلَى أَبِيهِ .

وَرَأَى إِخْوَةُ يُوسُفَ مَا يَغْمُرُهُ بِهِ أَبُوهُمْ مِنْ حُبٍّ وَعَطْفٍ ، وَمَا يَحْبُوهُ مِنْ رِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ ، فَغَاظَهُمْ ذٰلِكَ ، وَحَسَدُوهُ عَلَيْهِ ، وَوَدُّوا لَوِ اسْتَطَاعُوا الِانْتِقَامَ مِنْ يُوسُفَ ، وَلٰكِنْ كَانَ يُرْجِعُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ خَوْفُهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ .

وَكَانَ يَعْقُوبُ يَعْرِفُ مَا يُضْمِرُ أَوْلَادُهُ لِأَخِيهِمْ يُوسُفَ مِنْ

حِقْدٍ ، وَمَا يُخْفُونَ مِنْ مَوْجِدَةٍ ، فَكَانَ يَعْمَلُ دَائِماً عَلَى نُصْرَتِهِ وَحِمَايَتِهِ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي رَأَى يُوسُفُ فِي مَنَامِهِ حُلْماً جَمِيلاً أَعْجَبَهُ وَحَيَّرَهُ !

فَذَهَبَ إِلَى أَبِيهِ يَقُصُّهُ عَلَيْهِ قَائِلاً : يَا أَبَتِ ، إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

فَعَرَفَ يَعْقُوبُ أَنَّ اللهَ قَدْ مَنَّ عَلَى يُوسُفَ بِمِنَّةٍ عَظِيمَةٍ ، وَخَشِيَ أَنْ يَزِيدَ ذَٰلِكَ حِقْدَ إِخْوَتِهِ عَلَيْهِ ، فَأَسْرَعَ يُحَذِّرُهُ .

يَا بُنَيَّ ؛ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ، فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ـ فَإِنَّ اللهَ سَيُعْطِيكَ هِبَةً عَظِيمَةً : مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْمَعْرِفَةِ ، وَالْإِحَاطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

وَلَٰكِنَّ مَا خَافَهُ يَعْقُوبُ ، وَمَا خَشِيَهُ عَلَى يُوسُفَ مِنْ كَيْدِ إِخْوَتِهِ لَهُ كَانَ قَدْ دُبِّرَ وَقُدِّرَ ! !

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ
مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن
تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة يوسف - الآيات من ١١ : ١٤]

٥

لَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَةُ يُوسُفَ كَتْمَ حِقْدِهِمْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا كَتَمُوا ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْفَاءِ غَيْرَتِهِمْ مِنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَخْفَوْا ؛ فَعَوَّلُوا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ ، لِيَخْلُصَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ ؛ فَتَآمَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ — وَالْحَسَدُ يَأْكُلُ صُدُورَهُمْ ، وَالْغِلُّ يَفْرِي قُلُوبَهُمْ ، وَالْغَضَبُ يُعْمِي بَصِيرَتَهُمْ — عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا بِأَخِيهِمْ إِلَى الصَّحْرَاءِ فَيَقْتُلُوهُ ؛ وَلَـٰكِنَّ كَبِيرَهُمْ لَمْ يُقِرَّ إِخْوَتَهُ عَلَى هٰذَا التَّدْبِيرِ الْعَنِيفِ ، وَهَالَهُ أَنْ يُقْدِمُوا عَلَى قَتْلِ أَخِيهِمْ غِيلَةً ، دُونَ مَا ذَنْبٍ جَنَاهُ ، وَمَا ذَنْبُهُ عِنْدَ إِخْوَتِهِ غَيْرُ تَفْضِيلِ أَبِيهِمْ لَهُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ يُحَذِّرُهُمْ :

أَلَا تَبَصَّرْتُمْ فِيمَا أَنْتُمْ مُقْدِمُونَ عَلَيْهِ ، وَتَدَبَّرْتُمْ فِي شِدَّةِ وَقْعِهِ عَلَى أَبِيكُمْ ، وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ عَلَيْكُمْ ؟

فَقَالَ نَفَرٌ مِنْهُمْ ، يُهَوِّنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا اعْتَزَمُوهُ مِنْ فِعْلٍ : إِنَّ يُوسُفَ وَأَخَاهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ، وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ ، وَأَحَقُّ مِنْهُمَا بِالْحُبِّ ؛ إِنَّ أَبَانَا لَعَلَى ضَلَالٍ وَخَطَإٍ . نَقْتُلُ

يُوسُفَ ثُمَّ نَسْتَغْفِرُ رَبَّنَا وَنَتُوبُ ، وَنَكُونُ مِنْ بَعدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ .

فَقَالَ أَكْبَرُهُمْ يُحَاوِلُ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنْ قَتْلِهِ : لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قَالَ أَحَدُهُمْ :

وَلٰكِنْ مَنْ يُدْرِينَا أَنَّ مَنْ يَلْتَقِطُهُ يَعُودُ بِهِ إِلَى أَبِينَا ، فَنَكُونَ فِي ذٰلِكَ خَاسِرِينَ ؟

قَالَ أَكْبَرُهُمْ : — رَاقِبُوا الْبِئْرَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَهُمُّ بِذٰلِكَ تَصَدَّيْتُمْ لَهُ ، وَحُلْتُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْرَاجِهِ .

قَالُوا لَهُ : نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُكَ .

وَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى مَا دَبَّرُوهُ لِيُوسُفَ ، ذَهَبُوا إِلَى أَبِيهِمْ ، وَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَانَا ، نُرِيدُ أَنْ نَصْطَحِبَ يُوسُفَ مَعَنَا غَدًا ، إِلَى الصَّحْرَاءِ لِيَرْتَعَ وَيَلْعَبَ .

فَقَالَ الأَبُ : إِنَّ يُوسُفَ صَغِيرٌ ، وَأَخَافُ عَلَيْهِ .

قَالُوا : نَحْنُ كِبَارٌ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَافِظَ عَلَيْهِ وَنَرْعَاهُ .

وَلٰكِنَّ يَعْقُوبَ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمَنَ عَلَى يُوسُفَ شَرَّ إِخْوَتِهِ ،

وَلَمْ يَكُنْ لِيَطْمَئِنَّ لَوْ أَنَّهُمُ انفَرَدُوا بِهِ أَنْ يَنَالُوهُ بِالْأَذَى ، أَوْ يَبْطِشُوا بِهِ ، أَوْ أَنْ يُهْمِلُوه وَلاَ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ ، فَيُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ أَوْ يَفْتَرِسَهُ ذِئبٌ ؛ فَقَالَ يَتَعَلَّلُ لَهُمْ لِيَكُفُّوا عَنْهُ .

إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ .

وَلٰكِنَّ الْإِخْوَةَ لَمْ يَكُنْ لِيُؤْيِسَهُمْ رَفْضُ أَبِيهِمْ أَنْ يَصْطَحِبُوا يُوسُفَ مَعَهُمْ ، فَيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ مَا دَبَّرُوه لَهُ .

فَقَالُوا لِأَبِيهِمْ ، فِي رِفْقِ الْمُخَادِعِ ، وَلِينِ الْمُحْتَالِ : لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ ، إِنَّا إِذًا لاَ خَيْرَ فِينَا ، وَلاَ رَجَاءَ مِنَّا .

وَلَمْ يَجِدْ يَعْقُوبُ عِلَّةً أُخْرَى يَتَعَلَّلُ بِهَا لِأَوْلاَدِهِ لِيَصْرِفَهُم بِهَا عَنْ يُوسُفَ ، فَأَذِنَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ ، وَإِنْ كَانَ خَوْفُهُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِ عَلَيْهِ مِنَ الذِّئْبِ .

وَمَا كَادَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَنْفَرِدُونَ بِهِ بَعِيدًا عَنِ الْبَرِيَّةِ ، حَتَّى انْقَضُّوا عَلَيْهِ يُوسِعُونَهُ ضَرْبًا ، وَيُشْبِعُونَهُ رَكْلاً ، يُنَفِّسُونَ بِذٰلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بَعْضَ مَا بِهَا مِنْ غَيْرَةٍ وَحَسَدٍ ، وَغِلٍّ وَحِقْدٍ ، وَكُلَّمَا اسْتَغَاثَ يُوسُفُ بِأَحَدِهِمْ مِنْ شِدَّةِ

الضَّرْبِ ، زَادَهُ المُسْتَغَاثُ بِهِ ضَرْباً ، حَتَّى أَوْشَكُوا عَلَى أَنْ يَقْتُلوهُ .

عِنْدَئِذ تقَدَّمَ أَكْبَرُهُمْ ، وَدَفَعَهُمْ عَنْهُ ، قَائِلاً لَهُمْ :
لَقَدْ أَعْطَيْتُمُونِي مَوْثِقاً أَلَّا تَقْتُلوهُ ، فَكُفُّوا عَنْهُ .
فَكَفُّوا عَنْهُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى ٱلْجُبِّ .

وَكَانَ ٱلْجُبُّ بِئْراً عَمِيقَةً ، بَعِيدَةَ ٱلْقَرَارِ غَائِضَةَ ٱلْمَاءِ ، تَتَوَسَّطُهَا صَخْرَةٌ نَاتِئَةٌ ، يَقِفُ عَلَيْهَا ٱلرَّجُلُ ٱلَّذِي يَتَخَصَّصُ فِي ٱلنُّزُولِ إِلَى ٱلْبِئْرِ لِمَلْءِ ٱلدِّلَاءِ إِذَا مَا شَحَّ ماؤُها .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِلَى حَافَةِ ٱلْبِئْرِ ، فَخَلَعُوا قَمِيصَهُ عَنْهُ ، ثُمَّ دَلَّوْهُ فِيهَا وَهُوَ يَتَشَبَّثُ بِهِمْ صَارِخًا بَاكِياً ، وَيَصِيحُ مُسْتَغِيثاً : يَا إِخْوَتِي ؛ لَا تُلْقُوا بِي إِلَى ٱلْجُبِّ ، وَتَتْرُكُونِي وَحْدِي ؛ يَا إِخْوَتِي ؛ لَا تَنْصَرِفُوا عَنِّي وَتُخَلِّفُونِي .

وَلَٰكِنَّ إِخْوَتَهُ كَانُوا مُنْصَرِفِينَ عَنْ سَمَاعِ ٱسْتِغَاثَتِهِ ، وَتَحَجَّرَتْ قُلُوبُهُمْ فَلَمْ تَلِنْ لِتَوَسُّلَاتِهِ ، وَدَلَّوْهُ فِي ٱلْبِئْرِ ، وَتَرَكُوهُ فَوْقَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتِي يَلْتَفُّ مِنْ حَوْلِهَا ٱلْمَاءُ .

وَلَمَّا لَمْ تُجْدِ نِدَاءَاتُ يُوسُفَ ، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمْ ، وَلَمْ تُرَقِّقْ

قُلُوبَهُمْ ، وَلَمْ تَلِنْ عَاطِفَتَهُمْ ؛ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى ٱللهِ ، وَرَجَاهُمْ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ قَمِيصَهُ لِيَتَوَارَى فِيهِ ، وَيَسْتَتِرَ فِي ٱلْجُبِّ .

وَلٰكِنَّهُمْ ٱنْصَرَفُوا عَنْهُ ، هَازِئِينَ بِهِ ، سَاخِرِينَ مِنْهُ ، وَهُمْ يَقُولُونَ لَهُ مُتَهَكِّمِينَ : يَكْفِيكَ فِي ٱلْجُبِّ حُبُّ أَبِيكَ ! ٱسْتَتِرْ بِهِ ، وَتَوَارَ فِيهِ .

وَكَانَ ٱللهُ بِيُوسُفَ شَفِيقًا رَحِيمًا ، فَكَفَاهُ فِي ٱلْجُبِّ هَوْلَ ٱلْفَزَعِ ، وَجَنَّبَهُ وَحْشَةَ ٱلْوَحْدَةِ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ .

نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ المَلَكُ الأَمِينُ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ اللهِ يُنْبِئُهُ ، أَنْ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَحَمَلَ هٰذَا الْوَحْيُ إِلَى يُوسُفَ مَعَانِيَ كَثِيرَةً ، وَهِيَ أَلَّا يَخَافَ وَلَا يَجْزَعَ ، وَأَنْ يَتَجَمَّلَ بِالصَّبْرِ ، وَيَرْكَنَ إِلَى السُّكُونِ ، حَتَّى يَأْتِيَهُ اللهُ بِالفَرَجِ القَرِيبِ ، وَأَيْقَنَ أَنَّ اللهَ سَيُنْجِيهِ مِنْ مِحْنَتِهِ هٰذِهِ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يُقَابِلُ إِخْوَتَهُ مِنْ جَدِيدٍ .

وَعَادَ الإِخْوَةُ إِلَى أَبِيهِمْ مَسَاءً ، يَبْكُونَ أَحَرَّ بُكَاءٍ ، وَيُعْوِلُونَ أَشَدَّ عَوِيلٍ ، وَيَصْطَنِعُونَ الدُّمُوعَ .

وَذُعِرَ الأَبُ ، وَقَدْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ

يَتحَدَّثُوا ، وَسَأَلَهُمْ : مَا بَالُكُمْ ؟! وَأَيْنَ أَخُوكُمْ يُوسُفُ؟!

قَالُوا ، بَيْنَ الدُّموعِ الزَّائفةِ ، والنَّشيجِ ٱلْمَكْذُوبِ : يَا حَسْرَتَنَا عَلَى يُوسُفَ !!

قَالَ أَبُوهُمْ جَازِعًا : مَا خَبَرُهُ ؟! أَنْبِئُونِي مُسْرِعِينَ .

قَالُوا : ذَهبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ . وَكَانوا يَعْرِفُونَ أَنَّ أَبَاهُمْ لَنْ يُبرِّئَهُمْ . فَزَادُوا قَائِلِينَ : وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ .

وَأَرادُوا تَأْييدَ قَولِهِمُ ٱلْكَاذِبِ بِالْحُجَّةِ ٱلزَّائِفَةِ ، فَأَخْرَجُوا إِلى أَبِيهِمْ قَمِيصَ يُوسُفَ ، وَقَدْ لَطَّخُوهُ بِدَمِ طَيْرٍ ذَبَحُوهُ ، وعَرَضُوه عَلَيْهِ . وَنَظَرَ يَعْقُوبُ إِلَى قَمِيصِ وَلَدِهِ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُلَطَّخِ بِالدِّماءِ ، فوَجَدَهُ سَلِيماً لاَ أَثَرَ فِيهِ لِقَطْعِ ظُفْرٍ ، أَو لِتَمْزِيقِ نَابٍ ، فلَمْ يَخْفَ عَلَيهِ غَدْرُهُمْ بِيُوسُفَ .

وَقَالَ يَتَّهِمُهُمْ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . وَبَقِيَ يُوسُفُ فِي ٱلْجُبِّ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، يَنْتَظِرُ فَرَجَ ٱللهِ عَلَيْه ، وَلُطْفَهُ بِهِ ، حَتَّى جَاءَتْ قَافِلَةٌ

سَيَّارَةٌ ، كَانَتْ آتِيَةً مِنَ الشَّامِ ، تقصدُ مِصرَ للتِّجَارَةِ فِيهَا ، تَحْمِلُ بِضَاعَةً مِنَ الفُسْتُقِ والصَّنَوْبَرِ وَالنَّقْلِ ؛ فَلَمَّا مَرُّوا بِالْقُرْبِ مِنَ الْبِئْرِ الَّتِي بِهَا يُوسُفُ ، أَرْسَلُوا إِلَيْهَا نَفَراً مِنْهُمْ ، يَجْلِبُونَ مِنْهَا حَاجَتَهُمْ مِنَ الْمَاءِ .

وَأَدْلَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِدَلْوِهِ فِي الْجُبِّ ، ثُمَّ جَذَبَهَا وَهُوَ يَحْسَبُهَا قَدِ امْتَلأَتْ مَاءً لِثِقَلِهَا ، وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتِهِ ، وَأَعْظَمَ عَجَبِهِ ، حِينَ رَأَى مَا تَعَلَّقَ بِدَلْوِهِ .

رَأَى غُلاَماً وَسِيماً ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ ، يُطِلُّ عَلَيْهِ مَعَ الدَّلْوِ مِنْ جَوْفِ الْجُبِّ ، وَصَاحَ فَرِحاً مُتَعَجِّباً : يَا بُشْرَى ! ! هٰذَا غُلاَمٌ .

وَالْتَفَّ أَصْحَابُهُ حَوْلَ يُوسُفَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَتَحَسَّسُونَهُ ، وَهُمْ فِي عَجَبٍ من أَمْرِه يتَسَاءَلُونَ : مَا الَّذِي أَتَى بِهٰذَا الْغُلاَمِ إِلَى ذٰلِكَ الْجُبِّ ؟ ! مِنْ أَيْنَ جَاءَ ؟ ! وَمَنْ يَكُونُ ؟ !

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفْهِمُوهُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَلَمْ يُحَاوِلُوا أَنْ يَتَعَرَّفُوا حَالَهُ ، بَلْ أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَأَظْهَرُوا أَنَّهُ مَعَهُم فِي قَافِلَتِهِمْ عَبْدٌ رَقِيقٌ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى ، إِلاَّ أَنَّهُمْ عَادُوا ثَانِياً فَزَهِدُوا فِيهِ ، وَتَخَوَّفُوا مِنْ صُحْبَتِهِ ، وَمَا قَدْ تَجُرُّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَتَاعِبَ وَمَشَاكِلَ

فَما كادُوا يَدْخُلُونَ بِهِ مِصْرَ حَتَّى بَاعُوهُ فى سُوقِ الرَّقيقِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ .

وَكَانَ الَّذِى اشْتَرَاهُ وَزِيرَ مِصْرَ ، وَرَئِيسَ شُرْطَتِهَا ، وَالْمُتَصَرِّفَ فِى شُئُونِ مَالِيَّتِهَا .

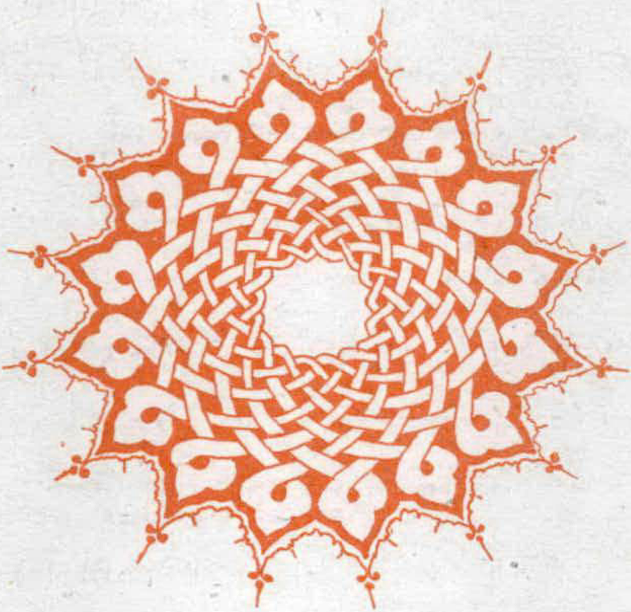
وَأُعْجِبَ هٰذَا الْوَزِيرُ بِيُوسُفَ أَيَّمَا إعْجَابٍ ، لِمَا آنَسَهُ فِيهِ مِنْ أَدَبٍ جَمٍّ ، وَوَدَاعَةٍ بَرِيئَةٍ ، وَكَمَالٍ ، كَمَا أُعْجِبَ بِجَمالِهِ وَوَسَامَتِهِ ، وَتَمَنَّى أَنْ يَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وَكَانَ لاَ وَلَدَ لَهُ ؛ فَآثَرَهُ بِمَحَبَّتِهِ ، وشَمِلَهُ بِعَطْفِهِ ، وجَعَلَهُ فِى دَارِهِ فِى مَنْزِلَةٍ لاَ يَعْلُوهَا غَيْرُ مَنْزِلَتِهِ ، وَمَنْزِلَةِ زَوْجَتِهِ .

وَأَوْصَى الْوَزِيرُ زَوْجَتَهُ بِيُوسُفَ خَيْراً ، وَقَالَ لَهَا :

أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ، أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً .

وَشَبَّ يُوسُفُ فَكَانَ بِدَارِ الْوَزِيرِ الْمُهيْمِنَ عَلَى شُئُونِهِ ، وَالْمُتَصرِّفَ فِى مَهَامِّهِ بِأَمَانَةٍ وَدُرْبَةٍ وَدِرَايَةٍ ، بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ عِلْمٍ ، وَوَهَبَ لَهُ مِن حِكْمَةٍ .

وَهٰكَذَا مَكَّنَ اللهُ لِيُوسُفَ فِى مِصْرَ ، بِمَا أَتَى عَلَيْهَا بَعْدَ ذٰلِكَ بِالسَّعْدِ وَالْخَيْرِ . وَتَقْرأُ بَقِيَّةَ حَدِيثِهِ فِى الْجُزْءِ التَّالِى .



مجموعة قصص الأنبياء

مجموعة جديدة ، فى أسلوب سهل ممتع ، وإخراج أنيق جميل ، للصغار والكبار ، تصف حياة الأنبياء ، وجليل أعمالهم ، وتسرد ما صادفهم من حوادث مع أقوامهم ، خالية من الشوائب والإسرائيليات حتى تظل العقيدة سليمة نقية تمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى وحده ، والاعتصام بدينه وتعاليمه ، والتحلى بالفضائل الحسنة ، والتمسك بالأخلاق الكريمة .

برنامج المجموعة

٥ قروش ج.ع.م.	٥٠ فلساً فى العراق والأردن	٧٠ فرنكاً فى المغرب
٤٠ ق . ل	٥٠ فلساً فى الكويت	٠,٦ ريالا سعودياً
٥٠ ق . س	٦٠ مليماً فى تونس	١ شلنا } فى البلاد
٥٠ مليماً فى ليبيا والسودان	٧٠ فرنكاً فى الجزائر	٠,١٤ دولاراً } الأخرى